

# "جناح السّرب"

صراع ذاتي بين أحلام الطفولة و استحضر الماضي

بقلم - محمد كمال السّخيري



## مدخل تمهيدي

تشتمل المجموعة الشعريّة " جناح خارج السّرب " للشّاعر سوف عبيد على ثلاثين قصيدة تمتاز بأسلوبها البرقيّ و اقتناص الشّاعر للحظات نعيشها و لا نعيشها أحيانا ليرسمها على الورق ثمّ يرسلها على جناح خفّاق في سماء الكلمة الصادقة و أجواء الفرح القادم ليستحضر الماضي في الحاضر، ثمّ يشيخ الوشاح عن بؤرة المستقبل المبهمة. و يشير الأستاذ

الناقد مصطفى الكيلاني إلى ذلك بقوله : " **إِلَّا أَنْ الَّذِي يَسْتَقَرُّ فِي  
الدَّهْنِ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ هُوَ حُبُّ الْبَقَاءِ وَ أَمَلُ التَّغْيِيرِ وَ فِرطُ التَّعَلُّقِ  
بِالْمَاضِي دُونَ انْفِصَالِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ وَ عَشْقُ الْأَنْوْثَةِ وَ الْحَيَاةِ** ".

فإلى أيّ مدى تبدو هذه الانفعالات و الصّراعات الوجدانية ؟. و كيف تمكّن  
الشّاعر من رسم حالته النفسيّة المتقلّبة حيناً و الهادئة أحياناً، المنطوية  
تارة و المنبسطة طورا !؟؟. و ما علاقة التقاطع بين الماضي و الحاضر و  
المستقبل بعشق الأنوثة و الحياة ؟؟. و كيف ينصهر الجسد مع الرّوح في  
لحظة نحيها مرّة واحدة ؟

قبل محاولة الغوص في هذه المتناقضات و الانصهار مع التفاعلات النفسيّة  
للشاعر و التي كانت في مجملها لحظات التّداعي و التّهالك في عالم  
الحزن و المأساة الممتزج بالخوف من المجهول، من الآتي، من المستقبل  
المخصّب بروح الطفولة و براءة الماضي و تدفّق العشق و حبّ الأنثى و  
بالتالي حبّ الحياة. و لمزيد البحث في بعض التّداعيات الوجدانية و  
العقلانية و تداخل الجسد و الرّوح و الصّراع الرّمزي بين الحياة و الوطن و  
الأنثى في فترات تأمّلية حسّية من الأجدى تصنيف القصائد إلى معاشات  
انفعالية أو بالأحرى انصهارات وجدانية داخلية تتماهى بين المنتمي و  
اللامنتمي للذات في خطّ نصف دائري من الانعكاس الوجداني الذاتي أشبه  
ما يكون بقوس قزح تمتزج ألوانه حيناً لنرى البياض و تنفصل أحياناً لنلمح  
كلّاً منها على حدة فنعشق الجمال  
و يمكن تصنيف الديوان حسب توزيع القصائد كما يلي:

- أ- **الجسد و الرّوح**: (الدلو - السمكة - ضلال الرّوح).
- ب- **الأنثى**: (الزيارة - الدّمية - تفتيش - السّماء السابعة - الماء و النار)
- ج- **الصراع الذاتي**: (الحفل - زجاج الركن - الذئب - الأبيض و الأسود - التاج - الهاتف).
- د- **الماضي**: (المحفظة - الأسبوع - الأربعون - فاتحة زمن جديد - حصان الطين - الثلاجة).
- هـ- **تأمّلات و اهتزاز نفسي**: (المحطّة - الجزيرة - برقية - الباب القديم - ثلاثية عبد الله).
- و- **الأرض**: (الحسين - الشّجرة - الرّحيل).

ز- **الحياة** : (آية الكرسي - الورقة).

فبعد هذا التصنيف يمكن لنا أن نستشف الصّراع الذاتي و المشاعر المهترّة و الأحاسيس المتقلّبة للشاعر لأنّ هذه القراءة ستحاول البحث في المنحى النفسيّ للأثر بعيدا عن الأسلوب و نوعية الكتابة و تركيبة القصيد.

## 1) **الجسد و الروح**

يبدو تداخل الرّوح و الجسد و انصهارهما في جلّ القصائد تقريبا إلا أنّ ذلك يظهر جليّا في القصائد الثلاث المذكورة آنفا إذ يجعل الشّاعر من الجسد عين الحياة الجارية و يصير الدّم منبع الوجود فتغازله الأنامل فيبين الجسد و ترتوي الرّوح فتستمرّ الحياة متهادية تعبق بأريج الجمال:

**أدلت أناملها**

**في قاع الجسد**

نفسجديّة متكرّرة فيخفق القلب ثانية و ترتجف الأنامل و تنعكس النظرات على مرآة الحياة:

**فيا زائرتي كلّ يوم جمعة**

**أسرعي نحو خزانة الملابس**

**و اسكني يدك جيب الصدر**

**ستجدين قلبي شديد التّبص**

**كما كان دائما**

**في انتظارك.**

(قصيدة الزيارة)

و ما أروع أن تتجسّد الأنثى في براءة الطفولة التي تطهّر بدموعها مآسينا و تروي أحلاما كادت تجفّ، فحين نلمح صبيّة تكفكف دمعها أو تغنيّ منتشية وهي تلاعب دميتها نستحضر الماضي و نحيا لحضتها فتعاودنا الحياة الرّوحية و نبعث في الماضي و نحيا لحظات كئنا عشناها فيذوب "الأنا الحاضر" و "الأنا الماضي" المنحوت في الذاكرة و يفنى الجسد لحضتها فتعاودنا الحياة الرّوحية و نبعث في الماضي زمن الحاضر فينتفي مفهوم الزّمن و يستحيل حلما و ينجلي غمّ الحياة المعيشية، فالوجود في عالم ماض قد وجد هو وجود في حدّ ذاته، و ما الفناء إلا رمز الوجود لذلك تفرح الطفولة فتترقرق الدّموع في المآقي و تصيح الحياة بستان فرح:

**الصبيّة زغردت**

**زغردت حتّى بكت**

**فأذابت بالدموع**

**عروس الثلج**

(قصيدة الدمية)

و تفتش الأم جيوب ابنها لتجد نفسها , حينها تصدق قوله:

**ليس ثمّة في تلا فيف ثيابي**

**من ريح لامرأة**

**سواك**

(قصيد تفتيش)

فكثيرا ما تعرّي الأنثى عن وجدانها فتمسي ابتسامتها باقة ورد تغازل وجدانا

كسيرا يبحث عن برعم أو طير يساعده على التّحليق في أجواء الأحلام

بعيدا عن الحاضر عاليا حتّى السماء السابعة:

**جرى الحبل على الغارب**

**حتّى امتلأ البئر**

**من دلو الدّم**

( قصيد الدلو)

و تنساب الحياة أكثر جمالا فيزداد عشقنا لها و نعيدها لسمكة ظفرنا بها و

ذلك بإلقائها في البحر ثانية بعد أن نرّبل لها أناشيد الحياة فنذوب معها و

نغوص بأحاسيسنا داخل اللّجج فتنصهر الرّوح مع الجسد ليرسما لوحة

الجمال من جديد:

**فانظر بين عينيها مليّا**

**ثمّ خلّصها من الشّمصّ**

**بلطف**

**و بالإحساس سرّحها**

**إلى اليمّ**

**هناك**

**ستلقاني**

**في ذائب الملح**

**و الرّوح.**

(قصيدة السمكة)

و تستمرّ لحظات التّداخل حتّى تصبح السمكة أنثى, امرأة تستظلّ الرّوح

حتّى لا يحترق الجسد و يفنى الجمال, فكلّ الأحاسيس الماديّة تنسحب إذا

ما استولت الرّوح على الجسد و سقطت بمائها الملائكيّ, حينها تصبح

الشّمس مهددة و مراودة حتّى تعانق الرّوح الجسد فتهمس للأنثى:

**و أنت تفتحين الباب**

**مهلا**

## فائِك تَسِيرِين عَلَى ظَلالِ الرُّوحِ ( قَصِيدَة : عَلَى ظَلالِ الرُّوحِ )

### (2) الأَنْثَى

كُلٌّ مِنَ الأَرْضِ وَ الأَمِّ وَ الحَبِيبَةِ وَ الحَيَاةِ رَمَزٌ للأَنْثَى، لِذَلِكَ تَبْدُو بِؤْرَةَ ظَلٍّ فِي كُلِّ قَصِيدٍ مِنَ الدِّيوانِ إِلاَّ أَنْ تَقاطِعُها مَعَ ذاتِ الشاعِرِ تَخْتَلِفُ مِنَ حَالَةِ لأخْرَى وَ مِنْ زوايا مَتقاطِعَةٍ هِيَ الأَخْرَى تَنْتَهِى كُلُّها بِحَبِّ الحَيَاةِ وَ اسْتِراجِاعِ الماضِي وَ تَكشِّفُ عَلى المَسْتَقْبَلِ انطِلاقاً مِنَ تَمركزِ ذاتِي زَمَنِهِ الحاضِرِ الماضِي أَوْ الماضِي الحاضِرِ المَسْتَعادِ عِندَ كُلِّ زِيارَةٍ أَوْ حَالَةٍ شَفَتَها

جناحان من الورد  
جناح داخل القلب  
و جناح داخل السُّرب  
عندما ابتسمت  
رفرف ثغرها عاليا  
و بعيدا  
في سماء القبلات.  
(قصيدة السماء السابعة)

إِذْنِ فالأَنْثَى مَصْدَرٌ إِلهامِيٌّ مَميِّزٌ، لِذَلِكَ هِيَ فِي عِلاقَتِها بِالرَّجُلِ أَشْبَهُ ما تَكُونُ بِحَنِينِ النَّارِ لِلْماءِ، فَهَذا الِالتِقاءُ المَتضادُّ بَينَ مَتناقِضينِ يُؤكِّدُ عِلاقةَ التَّجاذِبِ وَ التَّنابُفِ العاطِفيينِ، وَهُوَ أَسُّ مِنْ أَسسِ العِلاقةِ الوِجدانيَّةِ بَينَ الجَنسِينِ فَالتَّنابُفُ يُولِّدُ حَبَّ التَّجاذِبِ وَ السَّعيَ إِليهِ، وَ التَّجاذِبُ يَرعِّبُ فِي التَّنابُفِ لِمعايشَةِ تَجربَةِ الفِراغِ العاطِفيِ وَ تقوِيَةِ البِناءِ الوِجدانيِّ لِلفِردِ، وَ ما الحَيَاةُ إِلاَّ:

ماء و نار  
مرج البحرين  
يلتقيان  
(قصيدة الماء و النار)

### (3) الصِّراعُ الذَّاتيُّ

إِنَّ الدَّمَّ وَ التَّزْيِيفَ وَ السَّوادَ وَ القِتامَةَ وَ الحَبْرَ وَ الرِّجاجَ المَهشِّمَ وَ الأَنْيابَ وَ الحِواضِرَ كُلُّها رَموزٌ لِلخِوفِ وَ التَّذبذبِ وَ الصِّراعِ الذَّاتيِّ مَعَ الذَّاتِ وَ البَحْثِ عَنِ الشَّيْءِ أَوْ اللاشيِّءِ وَ هِما أَشْبَهُ بِكِوايِيسِ أَحلامِ اليَقِظَةِ أَوْ الرِّهبةِ حِينَ يَبْدُو المَسْتَقْبَلُ سَراباً وَ الأَمَلُ ضِباباً يَغشِّي نَفسا جَريحةً وَ وِجداناً كَسِيراً. وَ مِثْلَ هَذهِ الحِالاتِ النَفسيَّةِ يَنفِردُ بِها المَبدِعونَ عَنِ عَامةِ النَّاسِ وَ خاصَّةً

الكتاب منهم لأنهم يتعاملون مع اللامحسوس، مع المجرد بأحاسيسهم و  
تطلعاتهم و استقراراتهم و حدسهم عليهم يستكثرون معاني اللامفهوم و  
يعقلنون اللامعقول فيضحى المستحيل ممكنا و يصير الاشياء شيئاً فيقابل  
الفرد المرأة ليرى نفسه كما لم يرها أحد:

**صوتها البلور:**

**أرى و لا ألامس**

**انقطع الخط فجأة**

**البلور تهشم**

**قابضا على السماعة مكثت**

**فإذا يدي**

**بالدم**

(قصيد الهاتف).

فأحلام اليقظة تجعل النفس أنشى مجسدة، فتبعث هي الأخرى صورة امرأة  
فيولد الحوار الذاتي الذي يفضي في النهاية الى الصراع بين " الأنا " و "  
الأنا الآخر " فتنسب قطرات الدم من وجدان جريح و تعرى النفس ثانية  
فترسم على الورق.

#### **(4) الماضي:**

لقد بدا لنا ممّا سبق ذكره أنّ الشّاعر كثيرا ما استحضّر الماضي و يبرز  
ذلك عند القيام بجدول إحصائي ليتجلى مدى استعماله لأفعال الماضي عند  
نظمه للقصائد ممّا يبيّن سطوة الماضي ووجوده فينا , فالذاكرة رمز  
الماضي , و الوجود ذاته رمز لهذا الأخير و تقاطعهما الطفولة التي نحياها  
بكلّ ما فيها غير مكترثين بالزّمن:

**ثمّ أسرع نحو المحفظة**

**... مهلا**

**أيّها الصبيّ ... مهلا**

**ربّما**

**! تشيب قبل أبيك**

( قصيد المحفظة )

فما الماضي إلا ازدحام و اكتظاظ و تصادم و اصطدام بين " الأنا " و " الأنا  
الآخر " و " الأنت " و " الأنت الآخر " و تتوالى الأحاسيس متداخلة تفتك  
بالجسد فنرى و لا نرى, و تتعاقب الأيام و تصطفّ الأسابيع لتحدث فجوة مع  
الماضي حتّى إذا ما تذكّرناه و اقترب ممّا أكثر صار أقرب من الحاضر  
عساها يمتزجان فنحيا لحظة من لحظات المستقبل قبل أن نحياه:

**مضى الأسبوع مزدحما**

**بالذين نحبهم**

**و لا نراهم.**

( قصيد الأُسبوع )

و تتابع ذكريات الماضي متداعية و تبعث من جديد كلَّما تذكّر الفرد يوم ميلاده فيرى نفسه يومها طفلا لم تبق من طفولته سوى البراءة المرسومة في عينيه لَمَّا يقابل المرأة ذات صباح:

**هذا الصباح**

**لاح له البياض في المرأة**

**فالتقى بالطفل الذي...**

**مات.**

( قصيد الأربعون )

و يتداعى الماضي شيئا فشيئا حتّى ينصهر في المضارع متجاوزا الحاضر الذي يتوسّطهما و تبقى الطفولة رغم تسارع الزّمن و احتراق الجسد:

**وحدي أنحدر و الوادي**

**التين و الزيتون**

**دوران الرّحى**

**الماضي و المضارع**

**و النجع بالصبيّ**

**كان في قافلة النجوم**

**يمضي ...**

( قصيدة حسان التين )

نعم يمضي الجسد و تبقى الرّوح فتندثر المادة و يخلد الحسن:

**مات أبي**

**الثلاجة شاخت**

.....

.....

**ضاق البيت**

**يا أبتى**

**ذابت الدنيا**

**يا لعبي**

**ذات يوم**

**بعنا الثلاجة**

بأرخص ثمن .  
( قصيدة الثلجة )

## (5) تأملات واهتزاز نفسي

إن القصائد المنتمية لهذا التصنيف هي برقيات شعرية نظمت في لحظات نادرا ما يقتنصها الإنسان وهي ومضات حسية وجدانية عاطفية تخلقها اللحظة المفاجئة و الاهتزاز النفسي الشديد الانفعال , المتطلع للحقيقة و المستقرئ للذات نفسها في حالات الوحدة و الاغتراب و الاكتئاب أحيانا. حينها يرى الفرد نفسه على حقيقتها وهي تعرية وجدانية ذاتية يتقاطع فيها الشعور مع اللاشعور و ينتهي بانفصال كلي للجسد عن الروح فيفك كل ما كان مبهما و تبدو الأشياء على حقيقتها أصلا لا نسخة:

**القبر مفتوح**

**ينتظر**

**وصول الجيفة**

( قصيد البرقية )

## (6) الأرض

ستبقى الأرض دوما مصدر الإلهام و رمز التجدر و عنوان الوجود و رسم الانتماء , فالوطنية من مكونات الشخصية , و الوطن روح الفرد و كيانه , لذلك يرحل أحيانا و يهاجر ليعود إليه ثانية , إذ العلاقة الوجدانية مع الوطن تحدث فراغا نفسيا خاصة لما تتناهى المسافات منهما فيعود الحنين و يستحضر صور الماضي الجميلة ليعانق الأرض في لحظات حالمة فيستعيد ما افتقده ثم يعزم على رفض الغربة و الاغتراب في أرض الآخرين لأن الفرد يرحل و الوطن مستقر لا يعرف الرحيل . فهو مركز التجاذب و الصورة المنعكسة على الآخرين , لذلك يكون كائنا فينا ينساب في العروق : ليتدفق الدم و يخفق القلب فنواصل رحلة الحياة الممتعة خطوة خطوة

**الأرض شبرا شبرا**

**قدمي**

**البحر موجة موجة**

**السماء نجمة نجمة**

**في يدي**

( قصيد الرحيل )

## (7) الحياة:

إن حبّ الحياة و فرط التعلّق بها و عشقها رغم متناقضاتها و تقاطعاتها لدى  
الشاعر برز من خلال ما سلف ذكره لكن تبقى أجمل الصور و أبهى  
اللوحات النفسية رسوم الطفولة المنحوتة في الذات و خاصّة في اللاشعور  
, إذ كثيرا ما تسيطر الذاكرة على الحاضر و زمن الانصهار و الدّوبان في  
عالم الكتابة و الاحتراق الباطني للتفاعل الخارجي داخل البنية النفسية  
فيقع إسقاط أجمل لحظات الحياة المشوّهة و الزّمن المعقّد و الرّؤى  
المبهمة , فالطفل موجود في كلّ لحظة تداع حرّ ليغرس فسيلة حياة  
جديدة في وجدان يعاوده الحنين للماضي الذي بدوره يقتفي أثر الحاضر  
محاولا تجاوزه ليوازي المستقبل في حالة انتشاء قصوى:  
في مرور كلّ صباح على الحديقة  
يقطع زهرة

**يطويها في الجريدة**  
**يفتح الجريدة على حضرة المكتب**  
**فتقع الزهرة بجانب**  
**جناب الكرسي**  
( قصيدة آية الكرسي )

### خاتمة

تجدد الملاحظة بأنّ تداخل التصنيفات المذكورة و تقاطعها تبرز مدى ارتباط  
كلّ القصائد مع بعضها بعضا لانتمائهما لمصدر واحد وهو نفسية الشاعر  
نفسه الذي ينتقل من حالة انفعالية لأخرى بين القصيد و القصيد و أحيانا  
خلال القصيد الواحد أو بين السّطر في بعض الأحيان.  
إن هذه المحاولة الاستقرائية لرسوم على " جناح خارج السرب " قراءة  
نفسجديّة لذات جالت بين عالمي " الأنا " و " الأنا الآخر " و أحاسيس  
الحاضر المسكونة بالماضي الجميل , فهي حالات استحضار لانفعالات  
تتجاوزها الطفولة الحالمة لكنّها تبعث كلما التفتنا إلى الوراء لنجد الماضي  
أمامنا ملتفتا بدوره نحونا لأنّه رمز الوجود و نقطة الانطلاق للمستقبل ,  
فالصّراع مع الذات هو انعكاس للصّراع مع الزّمن حتّى نستشفّ وجودنا  
محاولين اختراق دائرة الزّمن المتسارعة . انه البقاء و التعلّق بالحياة حتّى  
المدى البعيد لينصهر الجناح داخل السّرب و يعبق أريج الورد على شرفة  
.. / .!! القلب

المرجع : - ديوان " جناح خارج السّرب " للشّاعر سوف عبيد ( الطبعة الأولى - دار سيراس للنشر - 1995 )

\* نشرت هذه القراءة بجريدة " الحرّية " بتاريخ 4 - 5 - 1995